البدو وقافلة الحج المصرية
خلال العصر العثمانى

حسام محمد عبد المعطى[1]

كان الحج فى كل عام مناسبة تنتهزها الدولة العثمانية لتأكيد سلطتها الدنيوية ودورها باعتبارها أكبر قوة إسلامية، حيث كان السلاطين العثمانيون المسيطرون على الحجاز يحرصون أشد الحرص على الاهتمام بتأمين وصول الحجيج لأداء مناسكهم، وتعد مشكلة هجمات القبائل العربية المنتشرة على طول طريق الحج الذى تسلكه القافلة واحدة من أكبر المشكلات التى كان على الدولة العثمانية وأمراء الحج المصرى التصدى لها لضمان أمن موكب الحج. فقد ظل العربان عقبة كبيرة فى وصول وعودة الحج سالما فى كل عام، وتسعى هذه الدراسة إلى التعرف على ماهية العوامل التى كانت تدفع العربان لمهاجمة قوافل الحج، وما هى القبائل العربية التى كانت تتعرض لقوافل الحج؟، وكيف استطاع أمراء الحج حماية هذه القوافل؟، وما هى الطرق والأدوات التى حاولت الدولة العثمانية من خلالها التصدى لاعتداءات العربان على هذه القوافل؟.

لقد درجت المصادر والمراجع على وصف العربان بالفاسدين والمفسدين، الخارجين دائما على الأعراف والقوانين[2]، الذين يقومون بمهاجمة القرى الآمنة، وقد انساقت أغلب الدراسات الحديثة وراء هذه الأيديولوجية دون دراسة العوامل والأسباب التى كانت تدفع العربان لذلك السلوك[3]، كما لم تنظر أغلب هذه الدراسات لعلاقة هذه القبائل بالسلطة السياسية ما قبل عصر محمد على، مشيرةً إلى أن هذه العلاقة كانت دائما علاقة صراع وتهميش وإقصاء من قبل السلطة لهؤلاء العربان[4]، وتسعى هذه الدراسة إلى البعد عن هذه

---

(١) أستاذ التاريخ – الحديث والمعاصر – المساعد كلية الآداب – جامعة بنى سويف.

(٢) صلاح أحمد هريدى، فصول من تاريخ المدن المصرية خلال العصر العثمانى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٤م، صـ ٨٦.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، صـ ٣٥٤.

(٤) إيمان محمد عامر، العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، صـ ٢٣.

الأيديولوجية وعدم الوقوع تحت تأثيرها ودراسة الدور الذى كانت تلعبه هذه القبائل فى نجاح مواسم الحج، والعوامل التى كانت تدفع هذه القبائل للتمرد والخروج على القوانين ومهاجمة قوافل الحج، فقد كانت القبيلة العربية بلا شك جزءً أصيلاً من مفردات الدولة فى المنطقة العربية ما قبل ظهور الدولة المركزية فى العصر الحديث، وقد اعتمدت الدولة العثمانية على هذه القبائل فى الالتزام بالقيام بمهام محددة فى نظير مبالغ مالية وحبوب عينية سنوية، وطالما ظلت هذه القبائل تقوم بالمهام المنوطة بها فقد ظلت جزءًا مهما من بنية الدولة العثمانية، وعندما كانت تتمرد على هذه المهام وتقوم بمهاجمة القوافل أو مهاجمة القرى فإنها تخرج عن الشرعية، وبالتالى كان ذلك يستلزم إرسال الحملات العسكرية التى تعيدها إلى سيرتها الأولى فى القيام بمهامها وليس من أجل إبادتها.

أهمية قافلة الحج:

لم يكن الحج فقط مراسم وشعائر دينية فقد أعطى الحج فرصة كبيرة للدولة العثمانية لفرض سيادتها على المسلمين فى أنحاء العالم، فقد كان الحج فى كل عام مناسبة تنتهزها الدولة العثمانية لتأكيد سلطتها الدنيوية ودورها باعتبارها أكبر قوة إسلامية[1]، وبالتالى فقد كان الحكام العثمانيون يبدون دائما اهتماما بتأمين وحسن وانتظام سير الحج، وكان من ضمن الألقاب التى حرص عليها السلطان سليم الأول فى أعقاب ضم مصر للسيادة العثمانية «خادم الحرمين الشريفين»[2].

ولأن قافلة الحج لم تكن فقط من أجل المناسك فقد كانت تلعب دورا كبيرا فى تفعيل التجارة داخل بنيان الدولة العثمانية بل والعالم الإسلامى كله، فقد كانت مسألة تأمين القافلة من هجمات العربان مسألة ضرورية للغاية، وكان للقاهرة بوصفها واحدة من أهم نقاط تجمع الحجيج لوصولهم إلى مقصدهم فى مكة والمدينة دورا حيويا فى إعطاء هذه التجارة حيوية وفاعلية كبيرة[3]؛ فمع بداية شهر شوال من كل عام كان يتجمع فى القاهرة حوالى

(١) محمد عبد اللطيف هريدى، شئون الحرمين الشريفين فى العهد العثمانى فى ضوء الوثائق التركية العثمانية، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٨٩م، صـ ٤٠.

(٢) محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربى (١٥١٤م – ١٩١٤م)، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٧م، صـ ١٢٥.

(٣) آندريه ريمون، القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر العربى للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤م.

أربعين ألفا من الحجيج والتجار قاصدين مكة ليس فقط من أجل إتمام مناسك الحج، بل من أجل عقد الصفقات التجارية على أساس تبادل منتجات البحر المتوسط بمنتجات جنوب شرق آسيا وجنوب غرب إفريقيا[1]، وكان كل ذلك يستلزم تأمين هذه القوافل بشكل كاف يضمن سيرها بأمان وراحة، ومن أجل ذلك فقد كان أمير الحج المصرى[2] أحد أهم الشخصيات المصرية، كما كان تمويل هذه القافلة يمثل أحد البنود الرئيسية فى ميزانية البلاد، وعند نهاية القرن الثامن عشر كان ينفق على هذه القافلة ١٢ مليون وخمسمائة ألف بارة من أجل ضمان أمن وسلامة الحجيج[3].

فقد لعبت قافلة الحج دورا كبيرا فى تفعيل التجارة داخل بنيان الدولة العثمانية، بل والعالم الإسلامى كله، وقد كان للقاهرة بوصفها واحدة من أهم نقاط تجمع الحجيج لوصولهم إلى مقصدهم فى مكة والمدينة دورا حيويا فى إعطاء هذه التجارة حيوية وفاعلية كبيرة؛ فمع بداية شهر شوال من كل عام كان يتجمع فى القاهرة حوالى أربعين ألفا من الحجيج والتجار قاصدين مكة ليس فقط من أجل إتمام مناسك الحج، بل وأيضا من أجل عقد الصفقات التجارية على أساس تبادل منتجات البحر المتوسط بمنتجات جنوب شرق آسيا وجنوب غرب إفريقيا، فإلى مكة كان يتم نقل البضائع الهندية والإفريقية واليمنية، حيث يعقد أكبر سوق إسلامى يؤتى إليه بجميع بضائع الشرق؛ فالمر والبخور والعقاقير الطبية والأقمشة

(١) سليمان محمد حسين حسانين، تجار القاهرة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م، صـ ٢١١.

(٢) درج سلاطين آل عثمان على تعيين أمير لقيادة قافلة الحج السنوية التى تخرج من القاهرة، وذلك بمقتضى أمر سلطانى (خط شريف) يسلمه رئيس حرس باب الديوان الحكومى (قابجى باشى) أو أحد فتيان القصر السلطانى، (جوخدار باشى) أو أحد الأغوات، إلى الباشا ويقرأ كاتب الديوان الخط الشريف على الأغوات والصناجق واختيارية السبع أوجاقات وأمير الحج وطائفته الحاضرين فى ديوان القاهرة، بجلسة الوالى الذى يقوم بالخلع على أمير الحج، بقفطان أميرية الحج، وكانت عملية الخلع هذه تتم عادة فى يوم مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) الموفق ١٢ ربيع الأول، وكانت هذه الخلعة عبارة عن قفطان من المخمل المذهب، ويخرج أمير الحج من القلعة فى موكب عظيم عائدا إلى منزله لكى يستعد للخروج بالموكب، وقد عرف خلال العشر سنوات الأولى من الحكم العثمانى لمصر باسم (أمير ركب المحمل) ثم اصطلح على تسميته (أمير الحج) أو (مير لواء الحج) وكان يلى الباشا والقائمقام، والدفتردار فى الأهمية داخل ولاية مصر العثمانية، غير أن أهمية أمير الحج تراجعت خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر.

(٣) آندريه ريمون، الولايات العربية فى العصر العثمانى، ضمن كتاب، تاريخ الدولة العثمانية، تحرير روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، صـ ٥٦٢.

الهندية والحرير الفارسى والخزفيات الصينية والبن اليمنى وغيرها الكثير[1]، كانت كلها تنقل إلى مكة استعدادا لوصول الحجيج، حيث تشهد مكة أكبر حركة تبادل تجارى بين منتجات الشرق والسلع الغربية من المرجان والرصاص والزجاج والحديد والنحاس والأسلحة النارية وغيرها. لقد كانت مكة تبدو أثناء الحج أثرى سوق فى العالم؛ فما من سلعة فى ناحية من نواحى العالم إلا وجدت بها، وعلى الرغم من صعوبة تحديد عدد التجار فى قافلة الحج، فلا شك أن كل حاج حرص على شراء عدد من السلع كهدايا، أو للتجارة بهدف تعويض ما أنفقه خلال رحلة الحج، ولم تكن السلع التى يحملها الحجيج من مكة أو إليها معفية من الجمارك فحسب، بل لم تخضع لأى تفتيش جمركى، وقد أسهم التجار بالدور كبير فى قافلة الحج المصرية[2]، ويرجع ذلك إلى أن عددا كبيرا من التجار المقيمين فى القاهرة حرصوا على السفر فى صحبة قافلة الحج فى كل عام[3] بأنفسهم فالجبرتى مثلا عند ترجمته لشهبندر التجار أحمد بن عبد السلام يقول: «وصار يسافر إلى الحجاز فى كل سنة مقوما مثل أبيه»[4].

من أجل كل ذلك فقد أولت الدولة العثمانية جل اهتمامها بالحج، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت قوافل الحج، واهتمت بالطرق؛ وأقامت الحصون، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وأصبحت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التى كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة فى مواعيد محددة كل عام، ولما كانت رحلة الحج تستغرق ما يقارب من الثلاثة أشهر ذهابا وإيابا، وكانت رحلة شاقة للغاية عبر الصحراء لذلك فقد كانت مهمة أمير الحج الأساسية توفير أسباب الراحة للحجاج، وتسهيل سفرهم إلى الأماكن المقدسة وعودتهم سالمين إلى بلادهم، لقد أسهم الحج فى الوحدة المعنوية والمادية للدولة العثمانية ومن أجل ذلك أولت الدولة مسألة تأمين الحج أولوية قصوى.

---

(١) القسمة العسكرية، س ١٠٥، صـ ٣٩٢، م ٤١٥ بتاريخ ١١٢٦هـ.

(٢) القسمة العسكرية، س ١٠٥، صـ ٢٠٦، م ٢٣٤، بتاريخ ١١٢٦هـ.

(٣) سجلات محكمة بولاق الشرعية، س ٦٥، صـ ٢١، م ٦٢، بتاريخ ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م.

(٤) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الثالث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

دور العربان فى تأمين قافلة الحج:

درج عـدد ليـس بالقليل مـن المؤرخين على التأكيـد على أن دور العربـان كان دائما سـلبيا فى رحلة الحج، وقد انسـاق هؤلاء المؤرخون وراء المصادر التى أعطت صورة سلبية لهجمات العربان على قوافل الحج دون بحث عن عوامل ذلك، ودون دراسة لعدد حالات الاعتـداءات التى حدثت لهذه القوافل[1]، والواقع أن هؤلاء العربان لعبوا دورا مهما للغاية فـى دعم ونجاح حركة قوافل الحج، وبدون وجود هؤلاء العربان حول الممرات الصحراوية كانت رحلة الحج سوف تكون أصعب بكل تأكيد، فما هو الدور الإيجابى الذى لعبه هؤلاء فى عملية نجاح قوافل الحج.

أولاً: حمـل الحجاج وبضائعهم على الجمال، فقـد كان العربان يوفرون الجمال لنقل الحجـاج، حيث كان الجمل الحيوان الرئيسـى الذى اسـتخدم فى السـفر عبر الدروب الصحراوية الشـاقة، وتوضح وثائق أرشـيف المحاكم الشـرعية ألاف الحجج التى تتعلق بتعاقـدات تتـم بين الحجاج والعربـان لحملهم على جمالهم والعودة بهـم إلى القاهرة مرة أخرى، فقد كون العربان شركات متخصصة فى نقل الحجاج، وفروا فيها الجمال والهوادج وكل ما يحتاجه الحجاج فى سـفرهم الشـاق[2]، وليس ثمة شـك فى أن ذلك وفر للعربان مصدر دخل مهم، وظل موسـم عمل ينتظره العربان طوال العام، فمثلاً فى العام ١١٤٤هـ/ تعاقد اثنان من العربان مع حاجين من الحجاج المغاربة لنقلهم من القاهرة والعودة بهم مع أحمالهم فى مقابل مائة دينار ذهب زنجرلى[3]، وهو ما يعكس المكاسـب التى كان يجنيها العربان من موسم الحج[4].

---

(١) سعد بدير الحلوانى، العلاقات بين مصر والحجاز ونجد خلال القرن ١٩، ط ١، القاهرة، صـ ١٣.

(٢) عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامى وأهميتها فى العصر العثمانى، ضمن كتاب، بحوث فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لبلاد الشام فى العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٥م، صـ ٢٠١.

(٣) زنجرلى لفظ فارسـى يعنى السلسـلة، وهو دينار ذهب عثمانى ضرب فى عهد السـلطان أحمد الثالث وقد أخذ الدينـار هذه التسـمية نتيجة للدوائر الصغيرة التى كانت تشـكل زخرفة إطاره كمـا كان يعرف بالمحبوب نتيجة لبروز حوافـه، وكان سـعره يتراوح بين ١٠٧، ٢٠٠ بارة، أحمد الصاوى، النقـود المتداولة فى مصر العثمانية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٨م، صـ ٥٢.

(٤) الصالحية النجمية، س ٥١٦، صـ ٢٠٠، م ٤٤١ بتاريخ ١١٤٤هـ.

كما كانوا يقومون بنقل الغلال والحبوب التى يرسلها الحجاج إلى منازل الحج المختلفة، فعند وصفه لسوق الرميلة فى القاهرة يقول الوريتلانى: «ومن هناك يكيل غالب الحجاج فولهم ويعمرونه هناك فى غرائهم ويمكنونه للجمالين فيذهبون به فلا يراه صاحبه إلا فى المكان المشترط معهم وهو المويلح فى الغالب»[1]. هكذا فقد أسهم العربان فى توفير احتياجات الحجاج بنقلها من بولاق والرميلة إلى القلاع المنتشرة على طول طريق الحج.

كما كان أمير الحج يستخدم العربان في عمليات شحن القلاع الممتدة على طول طريق الحج بالحبوب والغلال المختلفة التى تحتاجها القافلة، وقد دفع كل ذلك العربان للعمل على الحفاظ استمرار قافلة الحج، ولم تكن القبائل العربية تتحرك للعمل ضد القافلة إلا إذا تم حرمانها من مخصصاتها أو حرمت من خدمات الحجيج.

ثانيا: حمل سحابات الحج، فقد أوقف العديد من السلاطين والبشوات والأمراء سحابات لرعاية فقراء الحجاج، والسحابات هى خيام ومظلات كبيرة كان الحجاج يستظلون بظلها وتقدم لهم من خلالها الأطعمة والأشربة، وكان على نظار أوقاف الأمراء والسلاطين أن يتعاقدوا فى كل عام مع عدد من مشايخ العربان من أجل حمل ونصب وإعداد هذه السحابات والمخيمات التى كانت معدة خصيصا للفقراء من الحجاج، فقد أوقف السلطان مراد الثالث سحابة ضخمة ورصد للأنفاق عليها العديد من القرى، كما رصد مبالغ مالية لخدمات الحجاج فى هذه السحابة، ومن بينها تخصيص أموال للعربان لحمل وإعداد هذه الخيام الكبيرة[2]، كما أوقف أحمد باشا حافظ[3] سحابة للفقراء لحمل الماء اللازم للحجاج وحمل فقراء الحجاج إلي الحرمين، وكان العربان هم الذين يقومون بعمل هذه الخدمات فى مقابل الحصول على الأموال، مثل حمل المياه أو تمهيد الطرق وغير ذلك من الأعمال.

ثالثا: حراسة درب الحج، فقد سارت الدولة العثمانية على نفس نهج الدولة المملوكية فى دفع شرور البدو عن طريق منحهم حق حراسة طريق درب الحج، وذلك فى مقابل منحهم الرواتب السنوية التى كان يحملها لهم أمراء الحج، وذلك لكسب ولائهم للدولة

(١) الوريتلانى، نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار، مطبعة بيبرفونتانا الشرقية الجزائر، ١٩٠٨م، صـ ٢٦٥.

(٢) قطب الدين النهروانى: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م، صـ ٢٢٥.

(٣) تولى ولاية مصر خلال الفترة (١٥٨٣م – ١٥٨٤م).

مــن أجل المحافظة على أمن وراحة الحجيج[1]، وقد توزعت خفارتهم على طريق الحج[2] على النحو التالى:

الربع الأول من الطريق آلت خفارته لأقوى قبائل البدو قبيلة العائد، فقد تركزت خفارة المنطقــة الممتدة من أول صحراء القاهرة حتى ســطح العقبة فى أيــدى عربان العائد[3]، أما منطقة درك النقب فقد آلت خفارتها لأربع قبائل من العربان حيث كانت تنقسم إلى أربعة أقســام القســم الأول منها كان لعربان الوحيدات، والقسم الثانى لعربان المساعيد، والثالث لعربــان الرتيمات، والقســم الأخــير لعربان الترابين، أما منطقة المنــاخ حتى العقبة فآلت خفارتها لعربان بنى شاكر أولاد راشد وشاركهم فى خفارة هذه المنطقة جزء من عربان بنى عطية[4]، وقد حدث فى ولاية أمير الحج جانم بن قصروه عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م، أن نما أمر الحويطات[5] من بنى عطية واشــتهروا بالفساد والأذى وانتهزوا فرصة عجز بنى شاكر فى

(١) أحمد باشــا الجزار، نظامنامة مصر عن كيفية إعادة مصر إلى ســلطة الدولة العثمانية عام ١٧٨٥م، منشور ضمن كتاب عبد الوهاب بكر، الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، صـ ١٨٦.

(٢) الواقع إن هذا النظام كان متبعا فى العديد من الأنشطة المختلفة، فقد كان حفظ السفن فى النيل يخضع لمشايخ القــرى الواقعة علــى جانبى النهر فى مقابل بعــض المخصصات المالية، وخضعت أغلب الطرق لالتزام مشــايخ العربان القاطنين على جانب هذه الطرق، عبد الحميد حامد ســليمان، الملاحة النيلية فى مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، صـ ١٦٧.

(٣) تنتشر قبيلة العائد فى جنوب سيناء، وسكنت فروع منهم بلبيس، والصالحية، وهى بطن من طى أصلها اليمن نزحت إلى الحجاز عقب انتشــار الإســلام واســتوطنت نجدا حتى القرن الســادس الهجرى ثم قدمت إلى مصر فى القرن السابع حيث استقدمها الظاهر بيبرس وعهد إليها بخفارة جزء من درب المحمل الشريف وحماية الحجاج، وكان دراك العائد يمتد من بركة الحج حتى قلعة نخل، إيمان محمد عبد المنعم، المرجع السابق، صـ ٦٣.

(٤) قبيلة بنى عطية من القبائل العربية الكبيرة، وقد انتشرت فى شمال الحجاز والأردن ومصر، ويعرفون فى مصر بالمعــازة، وفــى الأردن بالعطاونة، وفى المملكة الســعودية ببنى عطية، وقد نزحت فــروع عديدة من بنى عطية إلى مصر قبل خمســة قرون واســتمروا فى النزوح إلى مصر حتى أوائل القرن العشرين، ومن أشهر فروعهم السليمات، والخمايسة، والمصابحة، والعقيلات، حمود بن ضاوى القشامى، معجم المواضع والقبائل، جـ ٢، دار العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م، صـ ٣٣٠.

(٥) قبيلة الحويطات من أكبر القبائل الموجودة فى الشــمال الغربى للجزيرة العربية، نزلت حول خليج العقبة تضم معها العمارنة (العمران)، وتوسعوا غربا حتى وصل بعضهم إلى القليوبية بمصر، وكانت لها السيادة حول خليج العقبة منذ القرن الســادس عشــر، سميرة فهمى عمر، دور عربان الوجه البحرى فى مصر العثمانية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٩م، صـ ٦٦.

القيام بالحراسة واستولوا على درك المناخ وحصلوا على العوائد التى كانت تمنح لبنى شاكر وقدرها ٨١٥ نصف فضة بالإضافة إلى الحبوب والهدايا من الجوخ والشاشات والأقمشة المختلفة التى كان يخلعها عليهم أمير الحج فى كل عام[١]، وقد أحل أمير الحج أيدين فى العام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م الحويطات محل بنى شاكر ومنحهم نصف عوائد بنى شاكر، وعندما تولى الأمير حسين أباظة أمير الحج فى العام التالى هاجم منازل عربان الحويطات وأحرقها وقطع رؤوس بعضهم وحبس البعض الأخر، غير أن عربان الحويطات سرعان ما استطاعوا السيطرة على هذه الدرك، وبالتالى ظلوا مسيطرين على تأمينه طوال العصر العثمانى.

أما الربع الثانى من طريق الحج فكان به دركان وجزء من الدرك الثالث فكان الدرك الأول لعرب الرشيدات من بنى عطية وأولة من البويب وآخره المحل الذى يسمى عند العرب كبيدة وبآخره مغارة شعيب، والدرك الثانى لبنى عطية أما الربع الثالث من طريق الحج فكانت خفارته فى أيدى عرب الأحامدة من قبيلة بلى[٢]، وبنو حسان من جهينة وغيرهما من بطون قبيلتى بلى وجهينة، أما الربع الأخير فقد آلت حراسته فى بداية السيطرة العثمانية لبنى حرب[٣]، وعنزة[٤]، كما منحتهم حق نقل الغلال الواردة من مصر من ميناء ينبع إلى المدينة المنورة ، مما ترتب عليه هدوء فى هذه المنطقة خاصة وأن شريف مكة تمتع بنفوذ كبير على العربان المقيمين فى هذه المنطقة[٥]، ولم تصبح هذه المنطقة

(١) سميرة فهمى عمر، إمارة الحج فى العصر العثمانى، المرجع السابق، صـ ٢٧١.

(٢) قبيلة بلى من أكبر القبائل العربية، وقد توافدت فروع عديدة من بلى على مصر منذ الفتح الإسلامى لها، ومن أشهر هذه الفروع، الأحامدة والمطارفة والعرادات والمعاقلة، حيث نزل أغلبهم فى سيناء والشرقية، محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ نشر، صـ ٢٨٩.

(٣) ينتهى نسب قبيلة حرب إلى خولان القحطانية من اليمن، وكان بدو بنى حرب يتألفون من عشر قبائل يبلغ تعداد أصغرها ٥٠٠ نسمة، وأكبرها ٣٠٠٠ نسمة، وتنتشر هذه القبائل حول ينبع والمدينة، وكانت قبائل بنى حرب مكلفة من قبل الدولة بنقل غلال أهالى المدينة، كان القائمون بهذه المهمة يسمون «صاحبى درك أى حماة المرور» وكان عليهم تقديم خدمات أمنية للحجاج، وفى مقابل ذلك خصصت الدولة لهذه القبائل صرة نقدية وكميات من الحبوب، ورغم أن أمير الحج المصرى كان هو الذى يدفع أموال الدرك، إلا أن شريف مكة كان صاحب نفوذ وهيبة كبيرة على عربان بنى حرب، وغالبا عندما كانت تهاجم قافلة الحج خلال هذه المرحلة كان شريف مكة مسئول مسئولية مباشرة عن القضاء على تمرد العربان خلالها. إسماعيل حقى أوزون، المرجع السابق، صـ ٨٢.

(٤) عنزة أحد بطون ربيعة كانت منازلهم خيبر من ضواحى المدينة فكانت تمتد حدودهم من الجهة القبلية إلى المدينة المنورة وحتى جبل مفرح.

(٥) إسماعيل حقى أوزون، المرجع السابق، صـ ٨١.

ذات خطر كبير على الحج إلا خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر عندما تأخرت مخصصات البدو[1].

وتشير دفاتر الصرة الرومية التى خصصها السلاطين لأهالى الحرمين إلى تخصيص مبلغ ١٤٢١٠٢بارة فى كل عام للقبائل التى تقوم بحراسة أدراك الحج[2] كما كان هؤلاء يتلقون كميات كبيرة من الحبوب من شون القلاع التى كان عليهم تأمينها مع الحاميات العسكرية المخصصة لذلك، وبالإضافة لذلك فقد كانت القبائل العربية تتقاضى مبالغ أخرى من أمير الحج، وكميات كبيرة من الملابس وقطع الأقمشة الجوخية والقطنية فيما كان يسمى بالخلع التى يمنحها لهم أمير الحج، حيث كان يستهلك سبعون بالة فى عمل ملابس توزع على البدو وأهالى مكة والمدينة[3].

وعندما تزايدت الاحتياجات المالية لدعم قافلة الحج خلال القرن الثامن عشر نتيجة لتراجع قيمة البارة، حمل الأمراء المماليك الخزينة الإرسالية نفقات إصلاح القلاع والصهاريج والمبانى العامة على طول طريق الحج، وكذلك المكافآت السنوية الخاصة التى كانت ترسل لأمير ينبع ولشيخ الحرم النبوى فى مكة، وكذلك للعربان الضاربين على طول الطرق[4]، وبالتالى فقد ارتفعت هذه النفقات التى كانت تخصم من الخزينة الإرسالية لتصل إلى مليون بارة[5].

رابعا: توفير احتياجات الحجاج من الطعام فى منازل الحج المختلفة، ففور نزول الحجيج فى أحد المحطات كان العربان يحضرون حوله ببضائعهم المختلفة من الحيوانات التى أخذوا فى تربيتها طوال العام انتظارا لموسم الحج مثل الأغنام والماعز والجمال،

---

(١) أحمد بن زينى دحلان، خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام، مطبعة الكليات الأزهرية، مصر، ١٣٠٥هـ، صـ ٢١٣.

(٢) دفتر صرة رومية أهالى حرمين شريفين مكة مكرمة ومدينة منورة شرفهما الله تعالى إلى يوم الدين، واجب سنة ١٢٠٠، رقم ١١٦، نوعى ٥٤٩، مخزن تركى ١.

(٣) كارستين نيبور، رحلة إلى بلاد العرب وما حولها (١٧٦١/ ١٧٦٧)، الجزء الأول، ترجمة مصطفى ماهر، المطبعة العالمية، ١٩٧٧م، صـ ٢٦٣.

(٤) سجلات الديوان العالى، الديوان، س ٢، ص ٢٩٧، م ٤٦٣، بتاريخ ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م.

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٨م، صـ ٣٦٩.

بالإضافة لمنتجات الحيوانات المختلفة مثل الجبن والسمن والزبد[1]، كما عملوا على توفير المياه والعشب للدواب والحيوانات التى يصطحبها الحجاج، وغير ذلك من المواد التى يستطيعون توفيرها، فيقول العياشى متعجبا «ولقد شاهدنا فى أيام المواسم بالحرمين العجب فما يباع فيهما من القشيم اليابس وكثرته مع غلاء الأسعار، فيدخل السوق من الأحمال ما يقرب الألف فى كل يوم فلا يمشى شىء من ذلك وشاهدنا حمل جمل يباع بدينار ذهب وأخبرت أن العرب يستعدون لذلك من أول السنة فيمهدونه فى البادية إبان الربيع ويبسونه وينقلونه إلى قرب الأمصار حتى تأتى الركبان فيتجمع لهم من ذلك ما يقوم بكفاية سنتهم»[2]، هكذا كانت المنفعة متبادلة بين قوافل الحج والعربان، فبدون توفير هذه السلع البسيطة التى يوفرها العربان كانت رحلة الحج ستكون صعبة للغاية إن لم تكن مستحيلة، وكانت كل محطات طريق الحج تزدهر وتتحول إلى أسواق كبيرة بمجرد وصول موكب الحج إليها[3]، كما أسهمت قوافل الحج فى إيجاد مصادر دخل للقبائل العربية الضاربة على طول طريق الحج، ووفرت لهم فرصة كبيرة لتصريف إنتاجهم من الحيوانات والأعشاب المختلفة.

العربان وعمليات سلب قوافل الحج:

وقد ظلت مشكلة هجمات القبائل البدوية المنتشرة على طول طريق الحج الذى تسلكه القافلة من أكبر المشكلات التى كان على أمراء الحج وأمراء مكة والإدارة فى مصر التصدى لها لضمان أمن وسلامة موكب الحج، وإلا تعرض كل هؤلاء لغضب وعقاب الإدارة فى إسطنبول، والواقع أنه كانت هناك العديد من العوامل التى تدفع العربان لمهاجمة هذه القوافل فما هى هذه العوامل التى كانت تدفع العربان لمهاجمة قوافل الحج؟.

أولا: فقد كان للبيئة التى يعيش فيها هؤلاء أثر كبير فى تنشئتهم على نهب الحجيج، فقد ألف هؤلاء منذ القدم أن يعيشوا على ما يقدم لهم على أيدى الحجاج، بل أحل هؤلاء نهب الحجيج وسلب ما معهم فالطفل منهم منذ مولده ترقصه أمه بقولها:

---

(١) أبو العباس بن ناصر الدرعى، رحلة إلى بلاد المناسك، جزآن فى مجلد، مطبعة حجر، بخط مغربى، د/ ت، صـ ١٣٤.

(٢) أبو سالم بن عبد الله العياشى، ماء الموائد المعروف باسم الرحلة العياشية، جزآن فى مجلد، طبع حجر، فاس، بخط مغربى، ١٨٩٨م، صـ ٣٠٠.

(٣) عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصارى الجزيرى، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المكرمة، مخطوط دار الكتب القومية، تاريخ رقم ١٥٧٠، صـ ٥٥.

أبو عيـــون لجـــلاج تكبر وتسرق الحــج!!

ومثلهم يقول: رزقنا على الحاج ورزق الحاج على الله!!!

وبالتالى فقد كانت البيئة التى ينشأ بها الطفل البدوى منذ البداية تؤهله لأن يعتاد على ســلب الحجيج كما كانت تبيح له أموال الحجاج لأنهم مصدر رزقهم، ويشــير الورتيلانى إلى ذلك بقوله: «ثم سرنا فى تلك المضائق إلى الوادى المسمى الآن بوادى العقيق بل تسميته بوادى العقوق أولى لتلصص أعرابه وجرأتهم على الناس بالسرقة»[1].

ثانيــا: ضعــف الإدارة العثمانية، فقد ارتبطت اعتداءات البــدو إلى حدا كبير بضعف الإدارة العثمانية فى القرن الثامن عشر، فلم يكن البكوات المماليك هم سكان مصر الوحيدين الذين استفادوا من اضمحلال السيطرة والإدارة العثمانية فى مصر فى هذا القرن، بل استفاد البدو بشكل كبير من ذلك أيضا، وظهر العربان مسيطرين على مناطق كبيرة من مصر، ولعل الهوارة[2]، وأولاد حبيب[3] خير مثال على ذلك، ولعل ذلك كان السبب الذى جعل العربان يســتطيعون فى كثير من الأحيان أن يتحدوا محاولات الحكام فى إيقاف أعمال التخريب التى كانوا يقومون بها خلال القرن الثامن عشــر، بخاصة وأن بعض الحكام والأمراء كانوا يشركونهم فى صراعاتهم السياسية مما أتاح لهم الفرصة للقيام بأعمال السلب والنهب مثلما حدث فى عام ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م.

ثالثا: الامتناع عن دفع المقررات السنوية التى خصصتها الدولة للبدو فى مقابل خفارة درب الحــج، وكان ذلــك من أقوى الأســباب التــى أدت إلى إثارة البــدو ودفعتهم لنهب الحجــاج لتعويض ذلــك، فقد كان لامتناع أمــراء الحج عن دفع مخصصــات البدو نظير خفارتهــم للطريق، وقيادتهم للحجيج فى الطريق الصحــراوى، أثر كبير فى إثارة القبائل العربيــة ويرجع عدم دفع أمــراء الحج لأموال العربان إما لعدم توفــر الأموال فى الخزانة نتيجة للأزمات الاقتصادية أو نتيجة لجشــع وطمع أمراء الحج فى اســتقطاع هذه الأموال لحسابهم. وفى العام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م كانت أولى حوادث الاعتداء على قوافل الحج من قبل

(١) الورتيلانى، المصدر السابق، صـ ٣٧٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هوارة يمكن مراجعة، ليلى عبد اللطيف أحمد، شــيخ العرب همام وحكم ولاية جرجا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن أولاد حبيب يمكن مراجعة عبد الحميد سليمان.

البدو فى العصر العثمانى، ففى هذا العام منع العرب مبشر الحج من الدخول إلى القاهرة مما ترتب عليه عدم معرفة أخبار الحجيج وكان سبب الاعتداء فى هذا العام أسر عبد الدائم ابن بقر بالإضافة إلى امتناع أمير الحج عن دفع الأموال المخصصة لعربان بنى بقر، وفى سنة ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م، اجتمع أمير الحج المصرى وبدوى بن عيد شيخ عربان بنى حرب فى مجلس الشريف سرور أمير مكة، فتطاول بدوى على أمير الحج وهدده بالهجوم على موكب الحج بسبب تأخر مستحقاتهم المالية، مما جعل الشريف سرور يأمر بالقبض عليه وسجنه حتى وفاته فى السجن، لذلك فقد تم نهب موكب الحج فى العام التالى، وظل بنو حرب فى حالة تمرد دائم حتى عام ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م عندما نجح الشريف سرور أمير مكة فى القضاء على تمردهم، مع وعدهم بتسديد مستحقاتهم المالية[1].

رابعا: الصراع القبلى على خفارة أدراك الحج، فكثيرا ما حدثت تغيرات اثنوجرافية لمناطق تركز وسيطرة القبائل العربية، كأن تنقسم القبيلة ويسيطر أحد الفروع على حراسة درك الحج دون الفرع الأخر مما كان يدفع الفرع الأخر على الثورة والتمرد ضد الدولة، أو أحد فروع القبائل ينمو ليتحول إلى قبيلة كبيرة ومن ثم يسعى إلى الاستحواذ على خفارة أحد الأدراك من الدولة العثمانية، ولكى يثبت قدرته على ذلك كان يبحث عن أضعف القبائل التى تحرس الأدراك ويعمل على مهاجمتها ومن ثمة تلجأ إليه الدولة من أجل حماية هذا الدرك، فمثلا فى ولاية أمير الحج جانم بن قصروه عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م، نما أمر الحويطات من بنى عطية واشتهروا بالفساد والأذى وانتهزوا فرصة عجز بنى شاكر عن القيام بالخفارة واستولوا على درك المناخ وحصلوا على العوائد التى كانت تمنح لبنى شاكر وقدرها ٨١٥ نصف فضة بالإضافة إلى الهدايا من الجوخ والشاشات والأقمشة المختلفة التى كان يخلعها عليهم أمير الحج فى كل عام، ولكى يتفادى أمير الحج أذاهم فقد أعطاهم الأمان ورتب لهم من ماله زيادة عما كان باسم بنى شاكر ٢٠٠٠ نصف فضة، وعشرين جوخة إضافة إلى عدد من البرانس المغربية، وعندما تولى الأمير أيدين إمارة الحج عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م منحهم نصف العوائد السابقة فقط، ثم قطع عنهم تلك العوائد الأمير حسين أباظة أمير الحج عام ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م، وقد تمكن هذا الأمير من الهجوم على منازل الحويطات وأحرقها وقطع رؤوس بعضهم وحبس البعض الآخر.

(١) أحمد بن زينى دحلان، صـ ٢٢١.

على العموم فقد كانت أكثر مناطق البدو فسادا المنطقة الممتدة من مغاير شعيب حتى العقبة وذلك لوعورة تلك المنطقة، فقد كانت هضبة العقبة أكثر المناطق التى تعرضت فيها قافلة الحج للنهب، فمن بين أربعة وعشرين حالة اعتداء بارزة على قافلة الحج خلال العصر العثمانى (١٥١٧م – ١٧٩٨م) كان منها أحد عشر اعتداء تم فى منطقة العقبة، فقد كان العربان ينتظرون صعود الحجاج للهضبة واقترابهم من قلعتها وعند إنزالهم حوائجهم للراحة بها يبدأ العربان بالهجوم حيث يكونون مختفين على أطراف الهضبة فمثلا فى العام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م، هاجم العربان فى العقبة قافلة الحج وكان ذلك بسبب ما حدث فى العام السابق، فقد حدث أن خرج أحد العربان المدعو قطيفان ومعه بعض البدو على أمير الحج محمد بك قطامش أثناء عودته بالحجاج فى العام ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م، وتمكن أمير الحج من أسره ومعه عشرة آخرون من البدو، وعاد بهم إلى مصر، وقد أثار هذا البدو، وأرسلوا يهددون محمد بك أمير الحج، فغضب الأخير وقتل قطيفان وسبعة من الأسرى، مما أغضب البدو، وجعلهم يتربصون لأمير الحج، عند وصوله للعقبة بالحجاج، فتقاتل معهم أمير الحج وقتل عددا كبيرا منهم، ثم واصل السير بالقافلة إلى مكة، وقد أرسل أمير الحج إلى الديوان فى القاهرة يخبره بما حدث ويطلب إليه إرسال حملة لدعم قوة موكب الحج عند عودته، وبالفعل فقد استجاب الديوان فى القاهرة لطلب أمير الحج فأرسل حملة عسكرية على رأسها صالح بك ومملوكة حسين بك الخشاب، وقد ألتفت الحملة من خلف هضبة العقبة وفاجأت العربان من طريق لم يكن يتوقعونه، وأطلقوا نيران المدافع عليهم مما كبدهم خسائر جسيمة، وبذلك نجحت الحملة فى القضاء على خطر العربان وعاد الحج سالما[1].

خامسا: تراجع أهمية منصب أمير الحج خلال القرن الثامن عشر مع بروز منصب شيخ البلد الذى أصبح محل تطلع القيادات المملوكية، وبالتالى فقد غابت الشخصيات الكبيرة التى كانت تتولى إمارة الحج، مثل رضوان بك وذو الفقار بك وإسماعيل بك بن عوض[2]، عن تولى هذا المنصب وحلت محلها أسماء أقل قوة، وبالتالى أقل حكمة على حل المشكلات

(١) أحمد الدمرداش كتخدا عزبان: الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، تحقيق دانيال كريسيليوس، عبد الوهاب بكر، ١٩٩٢م، صـ ١٩٩.

(٢) أحمد الرشيدى.

التـــى تواجـــه الحج، ويمكننا تحديد عام ١١٣٦هـ كبداية لتراجـــع قوة الأمراء الذين تولوا إمـــارة الحـــج، وتراجع هيبة أمير الحـــج[١]، برغم زيادة المخصصـــات النقدية التى كانت تخصص له[٢]، إلا أن احتياجات تأمين القافلة كانت تتزايد بشكل كبير، وبالتالى فقد عجز أمير الحج عن الوفاء بالتزاماته تجاه العربان، وتجاه تأمين القافلة.

فليس ثمة شك فى أن شخصية أمير الحج وهيبته لعبت دورا كبيرا فى حماية الحجيج من اعتداءات العربان، فشـــجاعة أمير الحج وإقدامه على قيادة فرســـان القافلة ومطاردته للبدو، فكان أمير الحج يضبط أطراف القافلة ونواحيها، بجماعة من العسكر على خيولهم، ويقوم بالمرور عليهم دوريا هو ورجاله[٣]، ففى عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م تمكن أمير الحج جانم السيفى بن دولات باى أحد أمراء الجراكسة وكاشف الجسور السلطانية، من التغلب على سلامة بن فواز شيخ بنى لام المفارجة المعروف بجغيمان من عربان بنى عقبة، عندما تعرض لقافلة الحج ومعه عدد كبير من العربان يصل لعشرة ألاف نفر، فى وادى سماوة بالقرب من الأزلم، وبرغم ذلك فقد نجح فى النجاة بالحجيج ولم يصب الحجاج بأدنى أذى، ويرجع ذلك إلى شجاعته وبأسه وإقدامه، ومن الأمراء الذين اشتهروا بالقوة والإقدام وحسن التدبير فى قيادة قافلة الحج، ذو الفقار بك، وإسماعيل بك بن عوض، وحسين بك كشكش.

وفى العام ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م، تولى الأمير حســـين بك كشكش إمارة الحج، وكان من الأمـــراء الحكماء الأقوياء، وعندما وقف له العربـــان فى مضايق الطرق، وحاولوا التعرض للحجاج، اســـتطاع بشجاعته وحســـن تدبيره التغلب عليهم، بل لقد بلغت شجاعة هذا الأمـــير أنـــه أصر على الخروج بالحجاج فى العام التـــالى عندما لامه على بك الكبير على مـــا فعله مع العربان[٤]، وقـــد تصدى العربان لموكب الحج مرة ثانية انتقاما لما فعله معهم حســـين بك فوقفـــوا له فى المضائق وعلى رؤوس الجبال وتربصـــوا به فى كل مكان، وقد

---

(١) تعرض موكب الحج فى هذا العام قبل خروجه لسرقة متعلقات أمير الحج شخصيا مما كان يوضح مدى تراجع قوة وهيبة أمير الحج، أحمد شلبى عبد الغنى، المصدر السابق.

(٢) The financial and administrative organisation and development of Ottoman Egypt, 1517 – 1798 ,Princeton university press, Princeton, 1962.

(٣) جابر ســلامة المصرى، الحجيج المصرى فى العصور الوســطى، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد الثلاثون، ١٩٨٥م، صـ ١٤٥.

(٤) سميرة فهمى عمر، إمارة الحج، المرجع السابق، صـ ٢٨١.

تمكن حسين بك كشكش من قتل عدد منهم وتشريد العدد الأكبر، ولم يستطع العربان بعد ذلك التعرض لقافلة الحج طالما ظل حسين بك أميرا عليها، حتى إن الجبرتى يشير إلى أن العربان كانوا يخوفون أبناءهم بذكر اسمه «وأخافهم وهابوه حتى كانوا يخوفون به أطفالهم»[1].

بيد أن السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر شهدت سنوات عجاف بالنسبة لقافلة الحج بسبب ضعف ورعونة أمراء الحج وبخاصة مراد بك ومماليكه، وكثيرا ما تسبب طمع أمير الحج فى عوائد العربان إلى تقصيره فى حق الحجاج وحرمانهم من رغبتهم فى زيارة المدينة المنورة، وأصبح ذلك واضحا فى أواخر القرن الثامن عشر، ففى عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م، لم يزر الحجاج المصريون المدينة، وذلك لعدم دفع أمير الحج العوائد للعربان الموجودين على طريق المدينة[2]، وأيضا عدم دفع الأموال المخصصة لأهالى المدينة المنورة، والوقع أن السبب وراء ذلك كان يرجع إلى استبداد وجشع الأمراء المماليك المسيطرين على السلطة فى مصر، حيث دفعهم الجشع إلى الاستيلاء على أموال قافلة الحج، مما كان يضطر أمير الحج إلى التقصير فى دفع عوائد العربان والأموال المخصصة لأهالى الحرمين[3]، مما عرض أمير الحج وقافلة الحج المصرية إلى المهانة والمظهر السيئ عند نهاية القرن الثامن عشر[4]، ويعلق الجبرتى على موكب الحج فى عام ١١٩٨هـ فيقول «كان خروج المحمل بصحبة أمير الحج مصطفى بيك الكبير فى موكب حقير جدا بالنسبة للمواكب المتقدمة»[5].

سادسا: الصراع السياسى فى القاهرة:

فيشير الجبرتى إلى أن هذه الواقعة حدثت نتيجة للصراع الفقارى القاسمى حيث تولى الفقارية بشكل دائم هذا المنصب المهم، ولما يتمتع به إبراهيم بك أبو شنب من نفوذ كبير فى داخل مصر، وبالفعل فقد تم تنحية إبراهيم بك وإعفائه من منصب أمير الحج، ولم يكتف العربان بهذا بل تعرضوا للحاج فى السنة التالية ١١٠٠هـ/ ١٦٨٧م، فى محطة

(١) عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، جـ ١، صـ ٥٠٤.

(٢) عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، جـ ٢، صـ ١٣٢.

(٣) سميرة فهمى عمر، إمارة الحج، المرجع السابق، صـ ٢٨٤.

(٤) أحمد الرشيدى، المصدر السابق، صـ ٥٣.

(٥) عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، جـ ٢، صـ ١١٨.

الشرفة، وقتلوا من الحجاج عددا كبيرا ومنهم خليل أغا كتخدا الحاج وأسروا بعضهم كما نهبوا من الحاج نحو ألف جمل بأحمالها، وعندما علم الباشا فى القاهرة بذلك أمر بتجهيز حملة عسكرية تعداداها ألف وخمسمائة جندى من العساكر السباهية، وعلى رأسها خمسة صناجق لمساندة الحجاج فى الطريق وقد استقر معظم أفراد الحملة فى عجرود بينما خرجت طائفة منهم تحت قيادة درويش بك لمقابلة الحجاج فى العقبة، حيث يوجد أمير الحج، وبوصول درويش بك إلى العقبة هرب العربان وتفرق جمعهم، وعاد الحجاج سالمين.

سابعا: ثراء قافلة الحج فقد كانت قافلة الحج واحدة من أثرى القوافل مما كان يسيل لعاب البدو الذين كانوا يعيشون حياة قاسية فقيرة لذلك فقد كانوا ينتظرون مرور القافلة فى كل عام لأخذ ما يستطيعون أخذه منها ليساعدهم ذلك على الحياة بقية العام.

ففى العام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م كلف محمد بك عرب شديد وفزاع بنقل باكير باشا حاكم جدة إلى مكة، مما أغضب العربان الآخرين وجعلهم يقطعون الطريق على قافلة الحج، فاستولوا على العقبة وعملوا على التحصن بها لقطع الطريق على موكب الحج، كما منعوا دخول باش الأزلم من العقبة لملاقاة الحجاج مما ترتب عليه أن أصبح الحجاج فى خطر كبير، وهو الأمر الذى دفع أمير الحج إلى إرسال رسول للعربان للتعرف إلى مطالبهم فطلبوا عشرة أكياس (٢٥٠,٠٠٠ بارة) وعشرة أحمال قماش، وعشرة أحمال بن، فعرض أمير الحج عليهم ألف زنجرلى فرفضوا وأصروا على مطالبهم، ولذلك لم يجد أمير الحج أمامه إلا الاستعانة بشديد وفزاع ليرشداه إلى طريق أخر فعرضا عليه الاتجاه من خلف العقبة وإن كان هذا الطريق يزيد فى سلوكه عن الطريق المعتاد ثلاثة أيام، كما كان عسيرا وقليل الماء، إلا أن أمير الحج وافق عليه لتجنب البدو وبرغم هذا تمكن بدو العقبة من نهب مؤخرة الحج، وسرقوا تسعة عشر حملا من الأقمشة للتجار وهلكت معظم الجمال[1].

وسائل حماية قوافل الحج من هجمات العربان:

فى الواقع أن الدولة العثمانية عملت على حماية أمن قافلة الحج المصرى من هجمات البدو من خلال العديد من الآليات، فما هى الوسائل التى حاولت الدولة من خلالها التصدى لاعتداءات العربان على قافلة الحج؟.

(١) أحمد شلبى عبد الغنى، المصدر السابق.

أولا: إرسال حامية عسكرية تكون مصاحبة لقافلة الحج، حيث تقوم بحراسة القافلة، ولم يكون أمير الحج هو المسئول الوحيد عن هذه الحماية ولا هو الممول الوحيد لتكاليفها، بل شاركه فى ذلك أمراء مصر من ناحية، حيث كان كل أمير يحوز رتبة الصنجقية مسئول عن إرسال ما بين ثلاثة وعشرة جنود على أن يتحمل مصاريفهم ونفقتهم، كما كان أمير الحج يصطحب معه أكبر عدد من مماليكه، وبالإضافة إلي ذلك كانت على الفرق العثمانية السبعة تقديم خمسمائة جندى للقيام بعمليات حراسة القافلة، وقد كانت الفرق العسكرية السبع تعين سبعة سرادرة، كان كل واحد منهم يسمى سردار قطار الحج، وكان سردار القافلة أو قافلة باشى هو سردار الإنكشارية، ومنذ منتصف القرن السادس عشر ألزمت الدولة العثمانية جنود حامية جدة البالغ عددهم خمسمائة جندى بالسفر فى صحبة قافلة الحج من أجل زيادة تأمين قافلة الحج وقد تم تخصيص راتب سنوى لهم مقداره ٣٦٦,٨١٤ بارة، وعلاوة على الجند السابقين كان يصحب قافلة الحج بعض الجنود المغاربة، كان أمير الحج يختارهم لمرافقة الحجيج وحراسته، وذلك لما عرف عنهم من الأمانة والبسالة، وكذلك معرفتهم الجيدة باستخدام الأسلحة النارية.

ثانيا: ترميم وإنشاء القلاع على طول طريق الحج:

فقد حشدت الدولة عددا كبيرا من الجنود والقلاع العسكرية على طول الطريق بين مصر ومكة، كما اهتم السلاطين وباشوات مصر بتعمير وترميم السواقى والآبار المقامة فى محطات الحج، كما حرص أمراء الحج من المماليك على متابعة سياسة السلاطين والباشوات فعملوا دائما على الاهتمام بشئون الحجيج والعمل علي راحتهم وإقامة المنشآت والمبانى وحفر الآبار وتمهيد الطريق للتخفيف من مشاق الرحلة وتوفير الراحة للحجيج، فقد امتدت على طول طريق الحج قلاع السويس، وعجرود، والطور، ونخل ، والعقبة، والمويلح، والأزلم، والوجه، والينبع، فمثلا قام داود باشا(تولى حكم مصر ٩٤٥هـ – ٩٥٦هـ/ ١٥٣٨م – ١٥٤٩م) بتشييد قلعة المويلح التى تعتبر من أضخم المنشآت المعمارية الدفاعية الحصينة بدرب الحج المصرى، وذلك من أجل راحة الحجيج وتخزين الغلال، وتوفير الحماية للحجاج من هجمات العربان[1]، فكانت الحامية العسكرية بقلعة المويلح تتقاضى فى كل عام ١٨٠٤٤٠

(١) عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، جـ ١، صـ ٥٠٤.

بارة[1]، وكانت بهذه القلاع أبار للمياه وخانات وأماكن لراحة الحجاج، كما أنشأ دواد باشا أيضا قلعة الأزلم لتكون محطة وسط حيث كان الحجاج يخزنون بها أمتعتهم ومئونتهم[2].

كما أمر السلطان مراد الثالث بترميم وتجديد قلعة العقبة بعد أن تعرضت للهدم على أثر زلزال ضرب مصر خلال عهد أويس باشا(٩٩٤هـ - ٩٩٩هـ/ ١٥٨٦م - ١٥٩١م)، كما أمر السلطان مراد بتجديد قلعة نخل فى العام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م، وقد وفرت الدولة الجنود لهذه القلاع وزودتهم بكل احتياجاتهم[3] من أجل حماية الحجاج من هجمات البدو حيث كانت مهمة هذه الحاميات العسكرية الأساسية الدفاع عن الحجيج، كما كانت استراحات مؤمنة للحجيج.

ثالثا: إرسال الحملات لملاقاة الحجاج:

فلما كانت رحلة العودة دائما أصعب من الذهاب بسبب هجمات العربان على الموكب فعملت الإدارة فى مصر على مد قافلة الحج بمزيد من القوات والمواد الغذائية والمؤن، فخصصت مصر كل عام حملتين لتعزيز الحراسة للموكب فى عودته فكانت أحدهما تذهب إلى الأزلم، وقوامها ثلاثمائة رجل يستدعون من أمراء أوجاق المتفرقة والجراكسة[4]، وكانت هذه الحملة تحمل كميات من المؤن الطازجة والحلويات قيمتها ٦٩٧٠ بارة، كما كانت تخرج حملة مماثلة لمقابلة الحجيج فى العقبة، وتتكون عادة من ألف جندى يقودهم سردار العقبة الذى كان يحمل حلويات ومؤن طازجة للحجاج بما قيمته ١٠٦٢٣ بارة، وكان يرافق الحملتين عدد كبير من التجار الذين يحضرون بضائعهم للبيع وكانت الخزينة تتحمل نفقات سفر الحملتين بما قيمته ١٩٣٥٣٠ بارة، لتأجير الجمال والإمدادات الأخرى للحملتين.

وليس ثمة شك فى أن بعثتا ملاقات الحجاج أسهمتا بدور كبير فى إمداد قافلة الحج بمتطلباتها من المؤن والملابس والمشروبات فضلا عن حمل احتياجات الحجاج التى يرسلها

---

(١) النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية، الجزء الخامس من وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، الخانجى، القاهرة ، ١٩٧٩م، صـ ٢٥٧.

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق/ عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٣) محسن شومان، المقاطعات الحضارية، صـ ٢٩٦.

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، مطبعة عين شمس، صـ ٢١٥.

أهلهـــم وذووهـــم من القاهرة، بالإضافة إلى مؤازرة الفرق العســـكرية المصاحبة لهم، ومن ثم فقد كانت هذه البعثات من محاســـن ما اهتم به من أمور الحج، ومن أســـباب عودته سالما لما كان يحدث للجمال والرجال من إرهاق ومشـــقة وفنـــاء للماء والزاد وهو ما كانت توفره هذه البعثات[1].

وقـــد بدأ تعيين الملاقـــاة الأزلية فى الدولة العثمانية منذ عـــام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م، وكان يرأســـها سردار برتبة بك غالبا ما كان يســـمى باشى الأزلم، وكان قوام هذه الملاقاة يتراوح بين ألف وثلاثة ألاف جندى، من الأوجاقات العســـكرية الســـبعة، ويرافقها عادة أقارب الحجاج والتجار لبيع متاجرهم للحجاج العائدين، وكانت البعثة تغادر القاهرة فى احتفال كبير، وتصل فى الأسبوع الثالث أو الرابع من شهر محرم، قبل وصول الحجيج إلى الأزلم بنحو يومين، وطوال القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى، كان باشى الأزلم يتجه بعســـكره إلى أكراه بعد أن يضع أحماله وعتاده فى قلعة الأزلم، ومع بداية القرن الســـابع عشر تقرر أن تكون الوجهة هى المحطة التى يقابل فيها باشى الأزلم قافلة الحج، أما بعثة العقبـــة فقد كانت تتكون من ألف جنـــدى، وتغادر القاهرة فى احتفال كبير أيضا، وكانت تحمل كميات كبيرة من المياه والمؤن والطعام.

وغالبا ما نجحت قافلتى الأزلم والعقبة فى دعم قوة قافلة الحج ونجحت فى مســـاندة القافلة وعودتها ســـالمة، وعندما كانت تصل أخبار أكثر خطورة عن تعرض القافلة لأخطار أكبر كانت الإدارة فى القاهرة تبادر بإرســـال حملات عســـكرية تحت قيادة كبار البكوات المماليك، فمثلا فى العام ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م وعند عودة موكب الحج تصدى العربان لموكب الحج عند عودته فى العقبة، غير أن وصول ذو الفقار بك على رأس حملة عســـكرية كبيرة أنقذ الحجيج من النهب، وقد كافأ الباشا فى القاهرة ذو الفقار بك على ذلك بمنحه التزام وحكم جرجا، وفى العام ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م تربص عرب ظهر الحمار المشهورون بالعمارنة بموكب الحج عند عودته، ونتيجة لضخامة أعداد العربان فلم يستطع أزلم باشى التصدى لهم لذلك فقد أرسل الباشا فى القاهرة حملة عسكرية من ثلاثمائة جندى تحت قيادة على بـــك الصغير تابـــع ذو الفقار بك، وقد نجحت الحملة فى محاربـــة العربان وتفريق شملهم

(١) The financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 – 1798 ,Princeton university press, Princeton, 1962.

وفـر أغلبهم إلى الجبال، وقد منح نظير ذلك كشـوفية جرجـا، ومنفلوط والمنيا، وفى العام ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م سـيطر العربان على العقبة ولم يسـتطع باش الأزلم دخولها، فأرسـل إلى الباشـا فى مصر طالبا إرسـال حملة عسـكرية، وبالفعل تم تجهيز حملة عسكرية من خمسمائة جندى تحت قيادة على بك الدمياطى، وقد كلفت هذه الحملة الخزينة الإرسالية مليونى بارة، وعندما وصل على بك الدمياطى بحملته إلى العقبة وجد قافلتى الأزلم والعقبة قد حملتا الأحمال والدواب متوجهين إلى هضبة العقبة، فالتقى بهما على بك وحاول دخول العقبة، وكانت المفاجاة التى قابلت على بك ومن معه، هى خلو العقبة من العربان، وكان العربـان قد أقاموا كمين للحملة حيث اختفوا على أطراف هضبة العقبة ريثما تسـمح لهم الظـروف بمهاجمة الحملـة، وبالفعل فاجأ العربان الحملة بالهجـوم من جميع الجوانب ونهبوا المؤن والخيام والدواب التى كانت بصحبة الحملة، غير أن أمير الحج استغل الصراع والمعركة ونجح فى الالتفاف حول هضبة العقبة ولم يصب أحد من الحجاج بسوء[1].

حوادث اعتداء العربان على قافلة الحج:

كانـت حـوادث اعتداء العربان على قوافل الحج أكثر بروزا خلال القرن الثامن عشـر، فخلال القرنين السـادس عشر والسابع عشـر كانت هناك ست حالات بارزة لاعتداء البدو فيها على القافلة، بيد أن القرن الثامن عشـر شـهد أكثر من ثمانية عشـر اعتداء من قبل البـدو على قافلة الحج، كان منها أربع حالات فقـط خلال النصف الأول من القرن الثامن عشـر، بينما كان هناك أربع عشـرة حالة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر، مما يؤكد ضعف الإدارة العثمانية خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشـر، كما يؤكد ضعف شـخصية أمراء الحج خلال القرن الثامن عشـر عنه عما قبل، فقد نجح بعض أمراء الحج بحسـن سياستهم تجاه العربان وشدة بأسهم فى توفير الأمن للموكب ويعود هذا النجاح إلى الكفاءة الفردية التى تتوفر فى شخصية أمير الحج، ومن هؤلاء الأمراء إسماعيل بك بن عوض وزين الفقار بك، وحسين بك كشكش، بيد أن الاعتداءات من جانب العربان أصبحت أكثر تأكدا إبان النصف الثانى من القرن الثامن عشـر، خاصة مع ضعف الموارد المالية المخصصة لأمير الحج مع تراجع القيمة النقدية للنصف فضة، وكذلك مع ضعف شخصية أمراء الحج

(١) أحمد شلبى عبد الغنى، المصدر السابق.

وتخليهم عن مهام عملهم ومحاولتهم الحصول على مكاسب مالية أكبر، بحجبهم دفع المقررات السنوية للعربان، وتهورهم ويكفى التذكير بمراد بك ومماليكه.

وتتجلى قدرة أمير الحج فى التصدى للعربان وإخافتهم من خلال انتقام أمير الحج ذو الفقار بك من عربان العقبة، فى عام ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م لما سببوه من متاعب لقافلة الحج فى العام السابق، فقتل الكثير منهم عند قلعة نخل، كما قتل شيخ عربان العقبة وأسر ابنه وأخاه وقادهما معه إلى مكة، وكان لهذه المواقف القوية دورها فى إعادة هيبة أمراء الحج فى نفوس العربان.

وفى عام ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م تعرض عربان العقبة لقافلة الحج أثناء ذهابها وكانت بقيادة الأمير ذو الفقار بك الذى تمكن من أسر سبعة أفراد من هؤلاء البدو مما أدى إلى محاصرة البدو لجبل العقبة أثناء عودة القافلة، الأمر الذى أعاق باشى الأزلم من دخول العقبة والوصول إلى الأزلم لاستقبال القافلة، وعندما وصلت الأخبار إلى القاهرة بما حدث من العربان أرسل الباشا حملة عسكرية قوامها خمسمائة جندى من رجال الأوجاقات العسكرية وعلى رأسها يوسف بك سردارا قائدا لها لإنقاذ الحجاج فى العقبة ولكن يبدو أن العرب شعروا بقدوم الحملة ورحلوا قبل وصولها فعندما وصل يوسف بك السردار إلى العقبة لم يجد منهم أحدا، وعاد بحملته مع الحجاج، وفى العام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م تعرض العربان لبعثة الأزلم ونهبوها بمنطقة عش الغراب، وكان ذلك انتقاما لما فعله إبراهيم بك ذو الفقار مع العربان فى عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م حيث دارت بينهم معركة كبيرة خلف جبل الجيوشى، وقتل خلالها إبراهيم بك ورجاله عددا كبيرا من العربان، على العموم فقد كانت تلك أهم حوادث اعتداء البدو على قافلة الحج خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وهى حوادث قليلة على أية حال إذا قورنت باعتداءات البدو خلال القرن الثامن عشر.

حوادث اعتداء العربان على قافلة الحج خلال القرن الثامن عشر:

وتبدأ أحداث اعتداءات البدو على قافلة الحج فى القرن الثامن عشر بإعاقة العربان الطريق أمام الحجاج فى العقبة فى عام ١١٢٨هـ/ ١٧١٦م، وقد تمكن أمير الحج من دخول العقبة بعد إرضاء العربان ببعض الهدايا ومر الحج بسلام، وفى عام ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م سبب البدو عناء شديدا للحجاج كما أصابوا قافلة العقبة بأذى شديد ولم يسلم منها إلا الهجان، وأصابوا أيضا أغا الوجه، وفى أواخر هذا العام وفى أثناء خروج الحجاج إلى مكة

تربص العربان للحجاج فى منطقة التيه بالعقبة، وقتلوا عددا كبيرا من الحجيج، ولخشية إسماعيل بك أمير الحج على الحجاج فى العودة من العرب المحاصرين للعقبة، أرسل طلب العون من رجب باشا فى القاهرة، وقد تعددت اعتداءات العربان على قافلة الحج فى منطقة العقبة ففى عام ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م تعرض عربان الترابين[1] لباشى العقبة ومن معه ومنعوه من الاتجاه إلى العقبة فتحصن بقلعة نخل إلى حين وصول الحملة التى أرسلها الباشا لمساعدته وقد مكنته الحملة من الوصول للعقبة.

ونتيجة لما حدث من بدو العقبة فى العام السابق، إلى تهديد الشيخ محمود شيخ عرب العقبة للأمير ذو الفقار حين جاء إلى مصر أصر الأخير على الانتقام من عرب العقبة، وتم له ذلك فى العام التالى ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م، حين خرج بالحجاج فقد تمكن الأمير ذو الفقار أمير الحج من قتل الشيخ محمود المذكور، وأسر ابنه وأخاه، وسار بهما إلى مكة وفى عودته وقف له البدو فى العقبة مطالبين بالأسرى، فوافق أمير الحج على طلبهم مشترطا إعادة ما نهبوه من الحج فى العام السابق، فما كان من البدو إلا إنكار ما سلبوه وغضبوا على أمير الحج وحاولوا أسر جاويش الحاج كرهينة يخلصون بها أتباعهم من الأسرى، ولكن باءت محاولتهم بالفشل، كما يجب أن نشير إلى أن القبائل الحجازية القاطنة فى المنطقة بين المدينة والمويلح لم تقم بدور كبير فى عمليات الاعتداء على قافلة الحج إلا خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر، عندما توقف الأمراء المماليك عن دفع عوائدهم المالية، كما أن المماليك فى مصر امتنعوا أيضا عن إرسال غلال الحرمين خلال هذه الفترة، وكانت قبائل هذه المنطقة تقوم بعمليات نقل الغلال من ينبع إلى المدينة، كما كانت تحصل على جزء من هذه الغلال، وقد دفعها كل ذلك إلى سلب ونهب موكب الحج عند عودته.

ومن أجل كل ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر سنوات عجاف بالنسبة لقافلة الحج نتيجة لتردى الأوضاع الاقتصادية والأمنية فى مصر، وكذلك بسبب ضعف ورعونة أمراء الحج وبخاصة مراد بك ومماليكه، ففى عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م تصدى عربان بنى حرب وجهينة لقافلة الحج عند الصفراء والجديدة، عند عودة القافلة تحت

(١) عربان الترابين كانوا يقطنون وادى العقبة وضواحى غزة وخاصة منطقة دير التين، وهم أحد القبائل التى عانت من غضب على بك الكبير عندما عزم على التخلص من سيطرة العربان على قطاعات كبيرة من مصر.

قيـــادة مراد بك «ومات كثير من الناس والغز والأجناد، ونهبت بضائع وأحمال كثيرة»[1]، وفـــى العام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م تعرض بدو بنى حرب للحج أثناء عودته، بســـبب عوائدهم المتأخرة والجديدة، ولم يتمكن الحجاج من زيارة المدينة، ووقفت العربان للحجاج المغاربة فى ســـطح العقبة، وحصروهـــم ونهبوهم وقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا نحو عشـــرة أنفار[2].

وفى العام ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م تعرض الحج لواحدة من أشـــد اعتداءات البدو على موكب الحج، برغم أنه دفع لهم جزء من أموالهم ومخصصاتهم وقسط الباقى على السنة القادمة، وبرغم ذلك لم يســـلم الحجاج من اعتداءات البدو، وذلك بســـبب ســـوء تصرف أمير الحج ورعونته، إذ إنه بعد أن دفع مخصصات وأموال العربان، أسر أربعة من عربان بنى حرب وأخذهـــم كرهائن، وكواهم بالنار فى وجوههم، فقد اعتقد أمير الحج أنه بهذا العمل يمكن تجنب البدو الباقين، وإرغامهم على عدم التعدى على القافلة ولكن ما حدث هو العكس إذ ثارالبدو على أمير الحج، وقاتلوه قتالا مريرا اضطره إلى الفرار والاختفاء عن الحجاج ثلاثة أيام، مما أتاح الفرصة للبدو لنهب جميع أحمال الحجاج والتجار، كما أسروا عددا كبيرا من النساء، وأمام ذلك فقد استعان الحجاج بأمير الحج الشامى أحمد باشا الجزار ليتوسط لدى البدو لإطلاق ســـراح الأســـرى من النساء، فأحضروهن عرايا ليس عليهن إلا القمصان، كما نهب العربان محمل الحج ورفضوا إرجاعه[3]، مما اضطر أمير الحج إلى استخدام محمل قديم مزور عند دخوله القاهرة، ولكن شـــريف مكة ســـرور بن مساعد تمكن عند صراعه مع العربان من بنى حرب أن يسترد المحمل ومن ثم أرسله إلى القاهرة[4].

وفى العام ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م تعرض العربان (من سائر النواحى) لقافلة الحج فى منطقة مغاير شـــعيب، ونهبوا الحجاج، وقتلوا عددا كبيرا منهـــم، وحطموا المحمل وأحرقوه، وأخذوا أحمالهم وجمالهم، كما أســـروا عددا من النساء، وأصيب أمير الحج واختفى عن الحـــج ثلاثـــة أيام ثم أحضره البدو مجردا من الملابس وعندما وصلت الأخبار إلى مصر بما

(١) عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، جـ ٢، صـ ٨٣.

(٢) عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، جـ ٢، صـ ١٣٢.

(٣) عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، جـ ٢، صـ ٢٠٢.

(٤) أحمد بن زينى دحلان.

حدث للحجاج أرسلت مجموعة من الجنود لإنقاذ الحجيج وفى يوم خروجها عاد بعض الحجاج فى حالة سيئة من الجوع والتعب، وتلاقت الحملة مع بقية الحجاج فى نخل، وعادت بهم إلى مصر دون أمير الحج الذى هرب وفى صحبته بعض الجنود والحجاج إلى غزة[1].

يتبيّن لنا مما سبق أن القبائل البدوية، التي كانت تسكن بالقرب من طريق الحج المصرى، خلال القرن الثامن عشر، سواء كانت قبائل مصرية أم حجازية، اهتمت بموسم الحج، وأولت القافلة حرصا كبيرا للاستفادة من مردودها المالى، الذى كان ينعكس على البدو بشكل عام، سواء الذى كانوا يتقاضونه من مال الصرّة، أم من خلال تأجير الجمال للحجاج وخدمتهم، وبالتالى الحصول على المال مقابل هذه الخدمات، أو عن طريق نهب القافلة فى حالات كثيرة كما مرّ بنا، لذلك أصبح البدو وتعاملهم مع القافلة يشكل هاجسا للإدارة السياسية فى الولاية المصرية، فتراوحت علاقتهم مع البدو فى حالات كثيرة بين مدّ وجزر، والغالب على هذه العلاقة هو البرود، بل أحيانا النزاع ما بين الطرفين، لظروف القبائل البدوية الاقتصادية السيئة، لقد أثبتت الدراسة أن الدولة العثمانية كانت حريصة فى أغلب الأحيان، على استرضاء القبائل البدوية، والاستفادة من خدماتها أثناء موسم الحج، ولكن عندما كان بعض المسئولين الإداريين فى مصر يمنعون الأموال التى كانت تخصص للقبائل، كانت هذه القبائل تتعرض لقافلة الحج، وتحدث المواجهات بين الجانبين.

على العموم فقد نجحت الدولة العثمانية إلى حد كبير فى دمج القبائل العربية فى بنية الدولة ونظمها، فطالما ظلت الدولة العثمانية قوية، فقد ظلت قادرة على توفير الأموال لهذه القبائل التى كانت تقوم على خفارة وحراسة الأدراك، كما كانت قادرة على الردع العنيف والسريع لأى قبيلة قد تسول لها نفسها الاعتداء على قوافل الحج، غير أن القرن الثامن عشر الذى تميز بتراجع قوة الدولة العثمانية السياسية، وتراجع مواردها وقدرتها الاقتصادية عكس أيضا تراجع قدرتها فى قيامها بالتزامتها تجاه رعاياها الذين كانوا يعيشون على ما تمنحه الدولة لهم من أموال مقابل التزامهم بالقيام بمهام معينة سواء تعليميه أم لحفظ النظام والأمن العام، والطرق العامة، وبالتالى فقد أخذت هذه القوى فى

(١) عبد الرحمن الجبرتى، المصدر السابق، جـ ٢، صـ ٣٧٨.

التمرد ضد الدولة وهو ما يفسر تمرد وبروز دور طلاب الأزهر وعلمائه خلال هذا القرن، كما يفسر أغلب التمردات التى حدثت خلال هذه الفترة، والواقع إن نمو الجماعات العسكرية المحليـــة فـــى أغلب ولايات الدولة العثمانية، وســـيطرتهم على المـــوارد المالية أفقد الدولة قدرتها على الاســـتمرار فى التزامتها المالية مما جعل حـــركات التمرد ضد النفوذ العثمانى فى تزايد مستمر.

❑❑❑